من الأمل إلى النور.. رحلة في اكتشاف القدرات وصناعة التمكين

دالية عطية الطويرقي
باحثة ومختصة في مجال التربية الخاصة وخدمة الأشخاص ذوي الإعاقة

حين أمضيت سنوات عملي في معهد الأمل للصم، كنت أظن أنني قد بلغت أقصى درجات الإعجاب بما يملكه الأشخاص ذوو الإعاقة من قدرات وإمكانات. فقد عايشت طالبات الصم عن قرب، ورأيت فيهن الإصرار والعزيمة والقدرة على تجاوز التحديات، حتى أصبحت قصص نجاحهن جزءًا من قناعاتي المهنية والإنسانية. كنت أرى كيف تتحول العقبات إلى دوافع، وكيف تصبح الإرادة لغةً يفهمها الجميع وإن غابت الكلمات والأصوات.

ومع انتقالي إلى بيئة تعليمية أخرى تضم فئة مختلفة من الطالبات ذوات الإعاقة، كنت أعتقد أن قلبي سيبقى أكثر انجذابًا لطالبات الصم بحكم تخصصي العلمي وخبرتي الطويلة معهن، لكنني وجدت نفسي أمام تجربة إنسانية ومهنية ثرية أضافت إلى قناعاتي الكثير. لقد اكتشفت عالمًا آخر من القدرات والمواهب والطاقات الكامنة التي تنتظر من يكتشفها ويؤمن بها.

أدهشتني الطالبات بما يمتلكن من قدرات استثنائية على الحفظ والاستيعاب، وقوة الذاكرة، وسرعة التقاط المعلومة، وحسن التعبير، والثقة بالنفس، والإصرار على التعلم والإنجاز. كما لمست لديهن مواهب متنوعة في المجالات الأدبية والثقافية والإبداعية والتقنية، ورأيت نماذج ملهمة من المثابرة والاعتماد على الذات والقدرة على مواجهة التحديات اليومية بإيمان وثبات.

ومع مرور الأيام أدركت أن ما يجمع الأشخاص ذوي الإعاقة أكبر بكثير مما يفرق بينهم؛ فجميعهم يمتلكون الطموح ذاته والرغبة نفسها في التعلم والنجاح وإثبات الذات. واكتشفت أن الإعاقة ليست عائقًا أمام الإنجاز بقدر ما تكون دعوة للبحث عن طرق مختلفة للوصول إليه. فالقضية ليست فيما يفتقده الإنسان، وإنما فيما يملكه من قدرات يمكن أن تنمو وتزدهر متى ما وجدت البيئة الداعمة والفرصة المناسبة.

ومن هنا يتجلى مفهوم "التمكين" الذي أصبح أحد المرتكزات الأساسية في رؤية المملكة العربية السعودية تجاه الأشخاص ذوي الإعاقة. فالتمكين لا يعني مجرد تقديم الخدمات أو

توفير التسهيلات، بل هو عملية متكاملة تهدف إلى تمكين الفرد من اكتشاف قدراته، وتنمية مهاراته، وتحقيق استقلاليته، والمشاركة الفاعلة في مجتمعه.

ويبدأ التمكين الحقيقي من معرفة الإنسان أولًا، وفهم نقاط قوته قبل التركيز على جوانب احتياجه. فعندما نحدد قدرات الفرد وميوله ومواهبه، نستطيع بناء برامج تعليمية وتدريبية تساعده على النمو والتطور. فإذا امتلك موهبة في الحفظ أو التقنية أو القيادة أو التواصل أو الإبداع، فإن التمكين يقتضي استثمار هذه الموهبة وتطويرها. وإذا واجه ضعفًا في مهارة معينة، فإن الواجب هو تدريبه عليها وتوفير الوسائل والأدوات التي تساعده على تجاوزها.

إن التمكين الحقيقي لا يبدأ من الحديث عن الإعاقة، بل يبدأ من الحديث عن القدرات. فكل إنسان يملك نقاط قوة تستحق الاكتشاف، وكل موهبة تجد من يرعاها يمكن أن تتحول إلى قصة نجاح ملهمة. ولذلك فإن بناء البرامج التعليمية للأشخاص ذوي الإعاقة يجب أن ينطلق من مبدأ الاستثمار في الإمكانات قبل معالجة التحديات.

وقد أولت المملكة العربية السعودية هذا الجانب اهتمامًا بالغًا، انطلاقًا من رؤيتها الطموحة التي تؤكد حق الأشخاص ذوي الإعاقة في التعليم والعمل والمشاركة المجتمعية الكاملة. فشهدت السنوات الأخيرة تطورًا نوعيًا في الخدمات المقدمة لهم، من خلال التوسع في البرامج التعليمية المتخصصة، وتوفير التقنيات المساندة، وتعزيز فرص التدريب والتأهيل، والعمل على تهيئة البيئات التعليمية والمهنية الدامجة.

ولم تعد الجهود تقتصر على توفير فرص التعليم فقط، بل امتدت إلى إعداد الأشخاص ذوي الإعاقة للحياة الجامعية وسوق العمل، من خلال تنمية المهارات الأكاديمية والمهنية والحياتية التي تمكنهم من الاستقلالية والإنتاج والمنافسة. فالطالبة التي تتعلم اليوم مهارات التقنية المساندة، أو تطور قدراتها القيادية، أو تكتسب مهارات مهنية متخصصة، ستكون غدًا موظفة أو معلمة أو باحثة أو رائدة أعمال تسهم في خدمة وطنها وتحقيق مستهدفات رؤيته.

إن الأشخاص ذوي الإعاقة ليسوا فئة تنتظر الدعم فحسب، بل هم طاقات بشرية قادرة على الإنتاج والإبداع والمشاركة في التنمية متى ما أُتيحت لهم الفرصة المناسبة. وما نشاهده اليوم من نماذج ناجحة لأشخاص تجاوزوا التحديات وحققوا إنجازات علمية ومهنية واجتماعية يؤكد أن الاستثمار الحقيقي يكمن في الإنسان، وأن النجاح يبدأ عندما نؤمن بالقدرات قبل أن ننظر إلى القيود.

لقد علمتني رحلتي المهنية أن القدرات الإنسانية لا تُقاس بما يفقده الإنسان، بل بما يملكه من إرادة وعزيمة وطموح. وعلمتني أن كثيرًا من المواهب قد تبقى خفية حتى تجد من يكتشفها، وأن كلمة تشجيع صادقة قد تصنع فرقًا في حياة إنسان بأكملها.

كما أيقنت أن التمكين ليس مشروعًا مؤقتًا، بل ثقافة تبدأ بالإيمان بالإنسان، ثم باكتشاف قدراته، وتنمية مهاراته، وتعزيز ثقته بنفسه، وفتح الأبواب أمامه ليشارك في صناعة مستقبله. وعندما يتحقق ذلك، يصبح الأشخاص ذوو الإعاقة شركاء حقيقيين في التنمية، ومساهمين في رفع إنتاجية الوطن، وصناعة نجاحاته، وإثراء مجتمعه بخبراتهم ومواهبهم وإنجازاتهم.

إن أعظم ما يمكن أن نقدمه للأشخاص ذوي الإعاقة ليس المساعدة المؤقتة، بل الفرصة الحقيقية ليكتشفوا ذواتهم، ويصنعوا أحلامهم، ويثبتوا لأنفسهم قبل غيرهم أن النجاح لا تحدده الإعاقة، بل تحدده الإرادة. فحين نؤمن بقدراتهم، ونمنحهم الدعم والتشجيع والتدريب المناسب، فإننا لا نمكّن فردًا واحدًا فحسب، بل نبني مجتمعًا أكثر شمولًا، ونصنع مستقبلًا أكثر إشراقًا لوطننا الغالي.

هيئة التربية الخاصة